تطور ظاهرة التطرف الدينى

يعتبر التطرف الدينى صورة من صور المبالغة فى التمسك بفهم معين للدين، والتعصب له، وبالتالى رفض ماسواه، ومحاربة المخالفين عند التمكن من ذلك. وهو يتطور -عادة- مع التركيز على مظاهر الفساد فى المجتمع، باعتبارها مناقضة لمبادئ الدين، وسلوك السلف. وهو الأمر الذى يجذب للفكرة الكثير من الاتباع، ويزيدهم تمسكا بها.

لكن خطورة التطرف الدينى لاتظهر بكاملها إلا عندما تتوافر له القيادة الذكية التى تجيد صك الشعارات، وتحسن التخطيط للتحكم فى تلك المشاعر الدينية العميقة، واستغلال حماسة الشباب المندفع بها، وتقوم بتوجيهها من أجل تحقيق هدف محدد، هو الوصول إلى الحكم.

ويمكن القول بأن تاريخ المسلمين يمتلئ بحركات التطرف الدينى التى تم استغلالها بوسائل عديدة، وتبعا لمناهج محكمة حتى وصل بها قادتها إلى الحكم: حدث هذا مع (الشيعة) الذين ظلوا يناوئون الأمويين والعباسيين حتى أقاموا دولتهم الفاطمية فى المغرب ومصر. وحدث مع (الخوارج) الذين خرجوا من معسكر على بن أبى طالب، وقاوموا الأمويين والعباسيين حتى تمكنوا أخيرا من إقامة دولة خاصة بهم فى كل من الشمال الإفريقى، وشاطئ عمان. وحدث نفس الشئ مع (الموحدين) الذين أطاحوا بدولة المرابطين، وحلوا محلهم فى حكم المغرب والأندلس[٤]. هذا فى العصور القديمة.

أما فى العصر الحديث، فقد كانت (الوهابية) وهى دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣-١٧٩١م) -أولى وأكبر حركة دينية اصلاحية تظهر فى العالم العربى خلال القرن الثامن عشر. وهى تتلخص فى ضرورة العودة إلى مفهوم التوحيد بمعناه السلفى -كما ورد عند ابن حنبل وابن تيمية- وبالتالى محاربة كل مظاهر الشرك والوثنية التى كانت قد عادت إلى الظهور فى منطقة نجد، ومنها التبرك بالأحجار والأشجار، والاستعانة بالأولياء، وبناء

القباب على قبورهم، ثم التوسل بها، والنذر لها - مع عدم التهاون فـــى أداء الشعائر الإسلامية كالصلاة والصوم والزكاة، وتطبيق الحدود الدينية وأهمـــها حد السرقة، والزنا، وشرب الخمر.[٥]

وقد تحمس الأتباع بشدة لهذه الدعوة، وحاربو وحوربوا من أجلـــها. وكـــان منهجها يقوم على إبلاغ المخالفين بأصول الدعوة، ثم محاربتهم عند رفضـــهم الاستجابة تحت شعار "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" الذى يتيـــح لـــهم تغيير المنكر باليد (أى بالسلاح) عند التمكن من ذلك[٦] وكـــان هـــذا بدايـــة التطرف الدينى فى المنطقة.

أما أهم النتائج السياسية التى حققتها الدعوة الوهابية فتتمثل فيما يلى:

(١) التمكين لقيام الدولة السعودية، واستمرارها حتى اليوم.

(٢) توحيد المناطق الثلاث المتنازعة فى شبه الجزيـــرة العربيـــة (نجـــد - الأحساء - الحجاز) تحت سلطة واحدة.

(٣) الانفصال المبكر عن سلطة الخلافة العثمانية.

وتظهر أهمية هذه الدعوة -هنا- فى أنها ظلت مصـــدر إلـــهام للعديـــد مـــن الدعوات اللاحقة، وزعماء الإصلاح الدينى الذين ظهروا فى أنحاء متفرقة من العالم الإسلامى، ومنها مصر[٧]، كما أن تأثيرها المباشر على تطور الفكـــر الدينى -فى الآونة الأخيرة- قد تزايد بصورة ملحوظة نتيجة سفر الكثير مـــن المصريين للعمل بالسعودية، واقتناع عدد كبير منهم بجدوى تطبيق النمـــوذج الوهابى خارج حدوده[٨].

أما فى مصر، فقد أحدثت الحملة الفرنسية (١٧٩٨-١٨٠١) رد فعـــل عنيفـــا لدى المصريين، أعقبه اتجاه قوى للانفصال عن سلطة العثمانيين، فتم اختيـــار محمد على (١٨٠٥-١٨٤٨) الذى قاد البلاد إلى عملية تحديث واسعة، علـــى غرار النموذج الأوربى وخاصة فى الجيش والإدارة، وما لبث أن تبعه التعليم والقضاء. وكان من الممكن أن تنجح محاولة محمد على، وتقـــترب مصـــر بالفعل من مصاف الدول المتقدمة فى القرن التاسع عشر.. لـــولا انقضـــاض

الاستعمار الغربى عليها، وعلى معظم البلاد العربية والإسلامية فى قارتى آسيا وإفريقية.

ونتيجة لضعف وسائل المقاومة المادية للاستعمار الغربى لدى المسلمين، فقد لجأ زعماء الإصلاح (الأفغانى، محمد عبده، الكواكبى، النديم... الخ) إلى استثارة المشاعر الدينية. وقد نجحوا فى ذلك إلى حد كبير. فقد استطاع المسلمون بحماستهم الدينية أن ينظموا صفوفهم، وأن يأخذوا بالوسائل الحديثة فى مقاومة الاستعمار، وبيان خطورته وذلك عن طريق استخدام الصحافة، وعقد المؤتمرات، وتنظيم المظاهرات، وإنشاء الأحزاب السياسية.. وكلها أمور لم يكن يعرفها المسلمون من قبل.

ومما يدل على أن الشعور الوطنى كان ممتزجا بالشعور الدينى مانلمسه بوضوح عند الزعيم مصطفى كامل (ت١٩٠٨) الذى رفع لواء التحرر من الاستعمار الإنجليزى، فى نفس الوقت الذى دعا فيه إلى تبعية مصر للدولة العثمانية (باعتبارها خلافة إسلامية).

لكن الزعيم سعد زغلول (ت ١٩٢٧) على الرغم من اتصاله القوى بالأفغانى ومحمد عبده -كان أكثر وعيا بخطورة التعصب الدينى، والتطرف فيه، لذلك استطاع أن يضم المصريين -مسلمين ومسيحيين- فى ثورة ١٩١٩، التى عبرت ببساطة وصدق عن روح الشعب المصرى الأصيلة، وهى الروح المتسامحة التى تتقبل الناس بعقائدهم المختلفة، ونزعاتهم المتباينة[١٠].

ومع ذلك، فقد كان هناك من يذكى فى المصريين روح التعصب الدينى، وأشير فى هذا المجال إلى الشيخ رشيد رضا (ت ١٩٣٥) الذى وفد من الشام إلى مصر سنة ١٩٩٨، وأعلن ولاءه الكامل للشيخ محمد عبده ورغبته فى التعلم منه، حتى صار بعد فترة أكبر تلاميذه. ولكنه أخذ يميل -على الرغم من معارضة أستاذه له- إلى الاتجاه السلفى المتشدد (ابن حنبل وابن تيمية). وعن طريق (مجلة المنار) ومطبوعاتها، استطاع أن ينشر عددا كبيرا من مؤلفات هذا الاتجاه، مما كان له أكبر الأثر على تدعيمه فى مصر.[١١]

وقد التقى حسن البنا برشيد رضا، وتأثر به، كما استوعب ما سبقه من دعوات الإصلاح الدينى[١٢]. وفى ظروف غاية فى الصعوبة، من سيطرة الانجليز وتصارع الأحزاب السياسية على السلطة، وسوء أحوال العمال والفلاحين، أنشأ جماعة الإخوان المسلمين سنة ١٩٢٩، على أساس أنها جماعة دينية ذات طابع تربوى واجتماعى خالص. وعلى الرغم من إعلانه المتكرر إبعادها عن السياسة، إلا أنها أصبحت بعد عدة سنوات أكبر تجمع حزبى منظم فى مصر، مما دفع الإنجليز إلى أن يعملوا لها حسابا، وأغرى كلا من الحكومة والأحزاب الأخرى بالتودد إليها لاحتوائها.

وقد كان مقدرا لجماعة الاخوان المسلمين -وقد أخذت تستكمل تنظيماتها، وتعد كوادرها بين العمال والطلاب بصفة خاصة- أن تحقق لمصر ماتسعى إليه من استقلال بعد وصولها إلى الحكم.

لكن ثورة يولية ١٩٥٢ قامت، وهى غير مقطوعة الصلة تماما بالإخوان المسلمين[١٣]، فحققت هذا الاستقلال، والتف الشعب بحماسه حول قادتها، وبدأت بها مرحلة جديدة تماما من تاريخ مصر المعاصرة.

ولم يلبث الإخوان المسلمون أن أحسوا بضياع مجهودهم السابق، فدخلوا فى صراع مع الثورة حول الحكم، انتهى بحل جماعتهم، ومحاكمة زعمائهم، وهروب عدد منهم إلى البلاد العربية المجاورة، وخاصة السعودية وسوريا، حيث تولوا فيها مناصب كبيرة، وحققوا ثروات ضخمة.

وعلى الرغم من القضاء على جماعة الإخوان المسلمين كتنظيم، إلا أن دعوتهم ظلت قائمة، بل إنها حظيت بالإعلان عنها فى السبعينات، أثناء حكم السادات. فنشر العديد من المؤلفات التى تمجد كفاح الإخوان المسلمين، وتصف زعماءهم الراحلين بالشهداء، وتندد بخيانة الثورة للعلاقة الحميمة بين زعمائها وأقطاب الجماعة.[١٤]

والحق يقال إن التطرف الدينى فى جماعة الإخوان المسلمين لايظهر بوضوح لدى مؤسسها حسن البنا، وإنما يبدو بشدة لدى خلفائه، وأشهرهم سيد قطب وخاصة فى كتابه الشهير "معالم فى الطريق" الذى نشره فى الستينات، معلنا فيه جاهلية المجتمع، وضرورة قيام الحكم الإسلامى بوسائل ثورية.

وقد كان مناخ السبعينات مناسبا تماما لتيار التطرف الدينى. وكان من أهم أسبابه: سياسة السادات القائمة على أسلوب الصدمة الكهربائية، وهى التى تحول الاتجاه إلى نقيضه بقرار مفاجئ: فالانفتاح الاقتصادى يحل محل الاشتراكية، والمحاور والأحزاب تحل محل الاتحاد الاشتراكى العربى، والاتجاه إلى الولايات المتحدة الأمريكية يأتى بدلا من الاعتماد على الاتحاد السوفيتى، وأخيرا الصلح مع اسرائيل وزيارة القدس تحدث بعد تاريخ ملئ بالعداء الصارخ والمصادمات الدموية.

كل هذا كان له تأثيره المباشر على الشعب المصرى بعامة، وعلى الشباب بصفة خاصة. وإذا كان كبار السن وأهل التجربة يمكنهم أن يدركوا أن للسياسة متطلباتها، ولمسايرة الواقع ضروراته، فإنه من الصعب على الشباب إقناعهم بالتحولات السريعة والخاطفة، بعد أن يكون قد تم شحنهم عاطفيا، ولمدة طويلة بما يخالفها.

وهكذا -ولأسباب أخرى اقتصادية واجتماعية- بدأت تتكون جماعات التطرف الدينى، خارجة فى البداية من تحت عباءة الإخوان المسلمين، ومتجاوزة بعد ذلك- سياستها المهادنة، ذات النفس الطويل، إلى سياسة أخرى ذات إيقاع سريع، يستجيب طبيعيا لما يحدث فى مصر من متغيرات، مع الاستفادة من مناخ الحرية النسبى الذى أعطى للمعارضة، بل ومع تلقى الدعم أحيانا من الحكومة لكى تقف فى وجه اليساريين الذي راحوا ينتقدون سياسة السادات على كل المستويات.[١٥]

وفى الوقت الذى انشغلت فيه الدولة بمعالجة قضايا متعددة ومعقدة مثل التنمية، وإصلاح المسار الاقتصادى، واستكمال البنية الأساسية، والتصدى لمشكلات البطالة، والإدمان، وإصلاح التعليم والخدمات، وانتهاج سياسة خارجية يمكن الاستفادة منها مع كافة دول العالم (وهذا يعنى تشتت الجهد)، فقد عكفت الجماعات الدينية المتطرفة على رفع شعار واحد (الإسلام هو الحل)، وقررت ببساطة أن كل مايجرى فى المجتمع باطل، وبالتالى لابد من الانسحاب منه تمهيدا لإضعافه، أو محاربته على الفور.

وهكذا بدأت ممارسات الجماعات الدينية المتطرفة تتسم بالعنف، محاولة فرض آرائها على المجتمع بالقوة، رغم مخالفتها الصارخة للدين وللأعراف السائدة. ومن ذلك -على سبيل المثال فقط- رفض جماعة التكفير والهجرة لتعلم الكتابة إلا لضرورة، وواجب التفريق بين المرأة التى تنضم للجماعة عن زوجها (للاختلاف فى العقيدة!!) ومن العجيب حقا، أن يؤمن بمثل هذه الآراء، ويتعصب لها أفراد يعيشون بيننا فى هذا العصر، وينتظر أن ينقلوا مصر بهذه التصورات إلى قلب القرن الحادى والعشرين.